العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
إذاعة الكفيل

سلسلة من حلقات برامج إذاعة الكفيل

صوت المرأة المسلمة

نهضة العزّ

إعداد

آيات حسون

العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
إذاعة الكفيل

كربلاء المقدسة

FM-95.3MHZ

النجف الأشرف

FM-103.9MHZ

ذي قار

FM-95.3MHZ

ميسان

FM-98.3MHZ

radio@alkafeel.net

الكتاب: نهضة العز.
الإعداد والتقديم: آيات حسون.
المونتاج الإذاعي: رؤى جميل.
الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة/ شعبة إذاعة الكفيل.
التصميم: علاء سعيد الأسدي.
الإخراج الطباعي: شيماء سامي.
التدقيق اللغوي: عمار كريم السلامي.
المطبعة: مطبعة دار الكفيل.
الطبعة: الأولى.

عدد النسخ: ٢٠٠٠

صفر ١٤٣٦هـ - كانون الأول ٢٠١٤م

المقدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله الطاهرين وسلامٌ على أصحابه البررة المنتجبين واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

أما بعد: لا يخفى أنَّنا مازلنا بحاجة إلى تكريس الجهود ومضاعفتها نحو نشر المفاهيم الأخلاقية والتربوية وترسيخ المفاهيم الإيمانية التي تضمنتها رسالة الإسلام لبناء الفرد بناءً فعلياً حقيقياً؛ ليكون انطلاقة سليمة لبناء ذلك الكيان الإنساني الشامخ الذي ماهو إلا اللبنة الأُولى لبناء مجتمع إسلامي راسخ البنيان، عتيد المراسي، لذا ومساهمةً في ذلك جاءت برامج إذاعة الكفيل صوت المرأة المسلمة كسبيل للوصول إلى ذلك، وقد أخذت هذه البرامج طريقها إلى أسماع الكثيرين عبر أثيرها وعبر شبكة الإنترنت العالمية صوتاً، ولأجل تعميم الفائدة إرتأت الإذاعة إيصال برامجها كتابياً إلى أيدي الذين لم يسعفهم الوقت لسماعها وذلك بطباعة بعض من برامجها وإصدارها كراريس.

الحلقة الأولى

السياسة الأموية وإذلالها للمسلمين

إذا استعرضنا تأريخ الدولة الأموية والتي تبتدئ من اليوم الذي استولى فيه معاوية بن أبي سفيان على مقدرات المسلمين في منتصف سنة ١٤ للهجرة وتنتهي سنة ١٣٢ للهجرة، وهي مدة إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر، نجد أنَّ حكام هذه الدولة ورجالاتها الذين تسلَّموا المناصب الرسمية كالولاة أو قادة الجيوش قد سلكوا مسالك عجيبة في إذلال المسلمين والأمة الإسلامية، وكان الغرض من ذلك كله هو إحكام سيطرتهم، وتمكين قبضتهم على جميع مفاصل المجتمع الإسلامي، وإخماد صوت المعارضين والثائرين عليهم.

وقد انعكس هذا الأسلوب الإذلالي على كلماتهم وأفعالهم وألقى بضلاله القاتمة على أرجاء الأمة الإسلامية، ولم يسلم من هذه السياسة المهينة حتى المتملقون لهم والسائرون في ركابهم.

وقد سجلت لنا كتب التأريخ جوانب كثيرة من هذه المواقف الإذلالية،

ولعلَّ الذي أُخفي وطمست ملامحه عند المؤرخين أكثر من ذلك بكثير، وفي الأبيات الشعرية الآتية ما يعكس هذه السياسة بشكل واضح وصريح، حيث يقول الشاعر:

فـــــدع عـــنـــك آل ســعــدى
فنحن الأكـثـرون حـصى ومـالاً
ونـحـن المـالـكـون الـنـاس قـسراً
نـسـومـهـم المـذلـة والـنـكـالاً
ونـوردهـم حـيـاض الخـسـف ذلاً
ومـــا نـــالـــوهُـــمُ إلا خـبـالاً

فهذه الأبيات تكشف بدقة عن توجه بني أمية السياسي في قهر الأمة وإذلالها وفرض نفوذهم وسلطانهم عليها، فبعد فتنة عصيبة مرَّتْ بالإسلام والمسلمين في عهد الخليفة الثالث، جاء الناس إلى الإمام علي عليه السلام يطلبون منه أن يلي الحكم ولكنه عليه السلام امتنع عند ذلك، فأبى الناس عليه إلّا أن يلي الحكم، فاستجاب لهم، وبويع بالخلافة بإجماع المسلمين وأعلن سياسته لإصلاح أمور الأمة في مجال الإدارة والحقوق والمال، وكانت أهم الجوانب الأساسية التي طبقها الإمام عليه السلام هو إصراره على عزل الولاة عن الأمصار، أولئك الذين اتسمت ولايتهم بالظلم والبغي وعدم الدراية بالسياسة وأصول الحكم، وولّى مكانهم رجالاً من أهل الدين والفقه والحزم لاسيما في الأمصار الكبرى في دولة الخلافة حينذاك.

وقد قال عليه السلام في هذا الشأن: «**ولكنني آسٍ أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً، فإنَّ منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حداً في الإسلام، وإنَّ منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ**»[1].

وكان على رأس هؤلاء الولاة الذين أصرَّ الإمام علي عليه السلام على عزلهم هو معاوية بن أبي سفيان الذي جمعت له ولاية بلاد الشام وامتنع عن بيعة الإمام علي عليه السلام، وأخذ يطالب بدم عثمان، وبايعه أهل الشام على ذلك واتخذ من ذلك الحين سياسة محاربة علي وشيعته أينما وجدوا شعاراً له، واتَّبع سياسة الإرهاب والقتل والتجويع بالنسبة إلى الرعايا المسلمين الذين لا يتفقون معه في الهوى السياسي.

تعكس لنا النصوص التأريخية التي يرويها المؤرخون سياسة معاوية لإذلال أهل العراق من خلال القتل والإغارة وزرع الرعب والخوف، حيث روي عن سفيان بن عوف الغامدي وهو أحد قادة معاوية العسكريين أنَّه قال: «دعاني معاوية، فقال: إنِّي باعثك في جيش كثيف ذي أداة وجلادة، فألزم لي جانب الفرات حتى تمر بـ «هيت» فتقطعها، فإن وجدت بها جنداً فأغر عليهم، وإلا فامض حتى تغير على الأنبار، فإن لم تجد بها جنداً فامض حتى توغل في المدائن... إنَّ هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم وتفرح كل من له هوى منهم، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر، فاقتل من لقيته

(١) نهج البلاغة: ٣/ ٩٠.

ممن ليس هو على رأيك، واخرب كل ما مررت به من القرى»، فمضى سفيان لأمر معاوية وأغار على المدن الإسلامية التي حددها له، فخرب البلاد ونهب الأموال وقتل من قتل من الرجال والنساء منهم، وقتل عامل الإمام علي عليه السلام أشرس بن حسان البكري، ثم انصرف إلى الشام، وعندما بلغ أمير المؤمنين عليه السلام خبر هذه الغارة ومقتل أشرس بن حسان البكري، تألَّم كثيراً، فصعد المنبر وخطب بالناس وقال: «**إنَّ أخاكم البكري قد أُصيب بالأنبار وهو معتز لا يخاف ما كان واختار ما عند الله على الدُّنيا، فانتدبوا إليهم حتى تلاقوهم**»[1].

وفي غارة عدوانية أخرى على المدن الإسلامية دعا معاوية الضحاك بن قيس الفهري وأمره بالتوجه إلى مدينة الكوفة وقال له: «فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي فأغِر عليه».

أقبل الضحاك على الكوفة فنهب الأموال وقتل من لقي من الأعراب حتى مر بالثعلبية، فأغار على الحُجّاج وأخذ أمتعتهم، ثم أقبل فلقي عمر بن مسعود الذهلي وهو ابن أخ الصحابي عبد الله بن مسعود، فقتله في طريق الحج عند القطقطانية وقتل معه ناساً من أصحابه.

استمر معاوية بسياسة إذلال المسلمين، وذلك بغارة عدوانية ثالثة كان مسرحها هذه المرة حرم الله وحرم رسول الله، مكة والمدينة بالإضافة إلى اليمن، وكان قائدها بسر بن أرطأة.

---

(١) موسوعة الإمام علي عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ: ٧/ ٩٥.

يروي ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: «... دعا معاوية بسر بن أرطأة وكان قاسي القلب فظاً لا رأفة عنده ولا رحمة، فأمره أن يأخذ طريق الحجاز والمدينة ومكة حتى ينتهي إلى اليمن، وقال له: لا تنزل على بلدٍ أهله على طاعة علي إلا بسطت عليهم لسانك، حتى يروا أنَّهم لا نجاة لهم وأنَّك محيط بهم، ثم اكفف عنهم وادعهم إلى البيعة لي، فمن أبى فاقتله واقتل شيعة عليٍّ حيث كانوا»، فخرج بسر في ذلك البعث، ونفذ كل ما أراده منه معاوية، وزاد عليها من الجرائم مما لا يسع المجال لذكرها جميعاً، فقد استخدم بسر بن أرطأة أشد الوسائل قساوة لإذلال أهل مدينة رسول الله ﷺ والأنصار خاصة، وعاشت المدينة جواً من الإرهاب والإذلال لم تشهد له مثيلاً من قبل، ثم خرج من المدينة إلى مكة، فقتل في طريقه رجالاً وأخذ أموالاً، ثم خرج إلى الطائف، وبها قوم من شيعة علي عليه السلام فأمر بقتلهم، ومن أقسى أنواع الإذلال وأشدها إيلاماً ما قام به طاغية معاوية مع نساء المسلمين من قبيلة همدان اليمانية، حيث مارس عملية استرقاق المسلمين وسبي المسلمات المؤمنات واسترقاقهن وعرضهن في الأسواق للبيع، فكنَّ أول مسلمات سبين في الإسلام، وكان عدد الذين قتلهم بسر ثلاثين ألفاً، ودعا الإمام علي عليه السلام على بسر فقال: «**اللهم إنَّ بسراً باع دينه بالدنيا وانتهك محارمك، وكانت طاعة مخلوق فاجر آثر عنده مما عندك، اللهم فلا تمته حتى تسلبه عقله ولا توجب له رحمتك**»[1]، فلم يلبث بسر بعد ذلك إلا يسيراً حتى وسوس وذهب عقله فكان يهذي ويقول: «اعطوني سيفاً أقتل به»،

(١) بحار الأنوار: ٤١/ ٣٠١.

حتى اتخذ له سيفاً من خشب وكانوا يدنون منه المرفقة فلا يزال يضربها حتى يُغشى عليه، فلبث كذلك إلى أن مات، وبهذا المطلع الدامي استهل معاوية سياسته بعد التحكيم مع المسلمين الذين يخالفونه في الهوى السياسي، وقد بلغ ذلك شأناً، فقتل وأرعب واستصفى الأموال وعاث في الأرض فساداً.

وفي رواية ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: «أنَّ هذه الغارات على أطراف الدولة الإسلامية كانت بمشورة من عمرو بن العاص وكان الهدف منها إذلال المسلمين وضعضعة أركان الدولة.

الحلقة الثانية

سياسة معاوية بعد

استشهاد الإمام علي عليه السلام

استمر معاوية على سياسة الإذلال بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام، ولكنها أخذت شكلاً أكثر تنظيماً وعنفاً وشمولاً؛ فبعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السلام وخلافة الإمام الحسن عليه السلام ذات الشهور العاصفة بالدسائس والمؤامرات عليه ثم اضطراره إلى التخلي عن الحكم مؤقتاً تحت ضغط الأحداث، آلت الأمور إلى معاوية بن أبي سفيان واتَّسقت له، وسيطر على العالم الإسلامي كله بعد أن أخذت له البيعة على الناس في شوال سنة إحدى وأربعين للهجرة، وقد عمل جاهداً من أجل محاربة مبادئ الإسلام التي أرساها الإمام علي عليه السلام مدة خلافته والتي عمل بها مع أفراد الرعية بأمانة وإخلاص عظيمين.

لقد كانت سياسة معاوية تقوم على الإرهاب والتجويع وإحياء النزعة القبلية واستغلالها والتحذير بِاسم الدين وشل الروح الرسالية، وكان هدفه

الأول في اتخاذ هذه السياسية هو أن يطبع حياة الناس وأفكارهم بالطابع الذي يؤمن له سيطرة دائمة خالية من أي رقابة أو احتجاج.

لقد أعلن معاوية سياسته ومبادئه وطبيعة الحكم الجديد الذي حارب علياً عليه السلام من أجله في كلمته التي استهل بها حكمه عندما جمع أهل الكوفة وقال لهم: «يا أهل الكوفة، أترونني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج؟ وقد علمت أنَّكم تصلون وتزكون وتحجون، ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم وألي رقابكم، وقد أتاني الله ذلك وأنتم كارهون».

وكان قد قال قبل ذلك، لما تم الصلح: «رضينا بكم ملكاً»، وكان معاوية أميناً لمنهجه هذا، فلم يحد عنه أبداً، وشهدت الأمة الإسلامية من جوره وتعسفه ما لم تعهد مثله في سالف أيامها، وكان أوفر دهاءً من أن يدع للمضطهدين منفذاً للتعبير عن سخطهم واستيائهم، وقد شهدت حواضر الأمة الإسلامية كالبصرة والكوفة والمدينة واليمن أياماً كالحة شديدة قاسية على أيدي ولاة وقادة جيوش معاوية، وكان شعاره المعلن: «اقتلوا شيعة علي حيث كانوا».

وكان أشد الناس ابتلاءً حينئذ أهل الكوفة؛ لكثرة أتباع الإمام علي عليه السلام فيها وبعلم معاوية من ذلك، فقتلهم تحت كل حجر ومَدَر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، فلم يبق بها معروف منهم.

هذا كله بالإضافة إلى سياسة الترحيل والتشريد التي اتَّبعها ابن سمية

لإضعاف المعارضة والتنكيل بهم وإذلالهم وتحطيم قوتهم، هذه هي الخطوط العامة الموجزة للسياسة التي اتبعها معاوية «عليه لعائن الله» لإذلال أبناء الأمة الإسلامية والتي تناولت حياة الناس وأمنهم، وأما سياسته التي تتناول أرزاق الناس وموارد عيشهم فلا تقل قتامة وكلوحاً وإيغالاً في الظلم عن سابقتها.

لقد اتصفت سياسة الأمويين عامة ومعاوية خاصة بالسخط والحقد الدفين على مدينة الرسولﷺ وأهلها لاسيما الأنصار منهم، وتعود جذور هذا السخط والحقد إلى أيام بدر وأحد والأحزاب، حيث صرع على أرضها وبسيوف المسلمين كبار رجال الشرك والكفر والضلالة من أمثال عتبة وشيبة والوليد وأبي جهل، كما تعود بعض الأسباب إلى موقف الأنصار الرافض للإطروحة الأموية وحكم معاوية، فلم يقف مع معاوية في حربه مع الإمام عليعليه السلام في صفين من الأنصار إلا النعمان بن بشير؛ ولهذا جهد معاوية ومن جاء من بعده من رجالات العهد الأموي على إذلال المدينة وأهلها من الأنصار وبمختلف الأساليب والطرق، وقد بلغ من تضييق بني أمية على الأنصار أنَّ معاوية لما قدم المدينة لم يكن لرجالهم وشخصياتهم دواب يستقبلونه عليها.

فيروى أنَّه لما قدم معاوية إلى المدينة استقبله وفد من الأنصار، فأغلظ لهم في القول، وقال لهم: ما فعلت نواضحكم؟ يريد انتقاصهم؛ لأنَّهم كانوا يشتغلون بالزراعة وسقي الأرض الزراعية فرده الأنصار رداً قوياً وقالوا: «أفنيناها يوم بدر لما قتلنا أخاك وجدِّك وخالك...».

ثم أولج معاوية إلى الشام ولم يقض لهم حاجة، ومعنى «ولم يقض لهم حاجة» أنَّه ضغط عليهم مالياً وحبس العطاء لإرضاخهم وإذلالهم وإجبارهم على الرضوخ لبني أمية وعدم الوقوف موقفاً سلبياً من إطروحة معاوية المستقبلية، وفي هذا السياق ومما يؤيد ذلك حضور وفود الأنصار باب معاوية ابن أبي سفيان فخرج إليهم حاجبه فقالوا: استأذن للأنصار فدخل إليه وعنده عمرو بن العاص فاستأذن لهم، فقال عمرو: ما هذا اللقب؟ اردد القوم إلى أنسابهم، فقال معاوية للحاجب: اخرج فقل من كان من ولد عمرو بن عامر فليدخل، فقالها الحاجب، فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الأنصار، فنظر معاوية إلى عمرو بن العاص نظراً منكراً، فقال له عمرو: باعدت كثيراً يعني «هات بنسب أقرب منه» فقال: اخرج وقل: من كان هاهنا من الأوس والخزرج فليدخل، فخرج وقالها: فلم يدخل أحد، فقال له معاوية: اخرج وقل من كان هاهنا من الأنصار فليدخل، فخرج وقالها فدخلوا يتقدمهم كبير لهم وهو يقول:

يا سعد لا تُبعِد الدعاء فما لنا
نسب نُجيبُ به سوى الأنصار
نسب تخيَّره الإله لقومنا
أثقل به نسباً على الكفار
إنَّ الذين ثووا ببدر منكمُ
يوم القليب هم وقود النار

وإذا تأملنا في هذه القصة يتضح أنَّ هدف عمرو بن العاص في إغرائه معاوية على إلغاء لقب الأنصار بصورة رسمية وردهم إلى أنسابهم التي كانوا ينتسبون إليها في الجاهلية، هو أن يسلبهم الموقع الذي يمنحهم عنوان الأنصار وهو عنوان يحمل في طياته معاني إيمانية عميقة ونسب يحمل معاني العزة والكرامة الإلهية.

لقد كانت سمة الإذلال للمسلمين وللأقليات غير المسلمة في البلاد الإسلامية هي السمة الواضحة التي سار عليها الولاة على الأمصار الإسلامية الكبرى في زمن حكم معاوية بن أبي سفيان ونماذج ذلك وشواهده كثيرة في تأريخ هذه الحقبة المظلمة من حياة المسلمين إذ تجسدت سياسة الإذلال والقهر وسحق إنسانية الإنسان في ولاة معاوية وعماله على أمصار الدولة والتي كانت سياسة معاوية نفسه، من أمثال عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وسمرة ابن جندب وأمثالهم، ومن النماذج والشواهد على هذه السياسة الأموية الإذلالية ما روته لنا كتب التأريخ: «أنَّ معاوية بن أبي سفيان استدعى الأحنف بن قيس وسمرة ابن جندب وقال لهما: إنِّي رأيتُ هذه الحمراء قد كثرت وأراها قد قطعت على السلف وكأنِّي أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيتُ أنَّ أقتل شطراً وأَدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق»، وكان هذا الموقف العدائي من الموالي سبباً في امتهانهم وإرهاقهم بالضرائب، وفرض الجزية والخراج عليهم، وإسقاطهم من العطاء، فكان الجنود الموالي يقاتلون من غير عطاء، وأيضاً من وسائل معاوية لإذلال المسلمين أنَّه أعطى عمرو بن

العاص أرض مصر وأموالها وسكانها ملكاً حلالاً له، فقد جاء في صك العطاء أنَّ معاوية أعطى عمرو بن العاص مصر وأهلها هبةً يتصرَّف بها كيف يشاء!

نعم... مصر التي كتب أمير المؤمنين علي عليه السلام لعامله مالك الأشتر وثيقة تعد من أعظم وثائق حقوق الإنسان على مدى العصور، غدت عند معاوية سلعة تُباع وتُشترى!

معاوية الذي عندما استولى على العراق أمر بنقل بيت المال من الكوفة إلى دمشق، وزاد في عطاء أهل الشام، وحطَّ من عطاء أهل العراق، وقد أوضح فلسفته بقوله: «الأرض لله وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركته كان جائزاً لي»، ولم تقتصر سياسة الإذلال بمختلف صورها على الموالي فقط، بل شملت أبناء الأمة الإسلامية، ومن خلال ولاته وعماله على الأمصار، كان معاوية حريصاً على أن يولي على العراق كوطن الولاء لآل البيت أشخاصاً من أعداء آل البيت عليهم السلام وأخبثهم؛ ليضمن تنفيذ سياسة الإرهاب والإذلال والتجويع في العراق بسهولة بالنسبة إلى المسلمين عامة، ومن أُتّهم بحبِّ علي عليه السلام خاصة، ويستطيع أن يمنح العراقيين امتيازات يعلم أنَّ ولاته بسبب حقدهم على محبي آل البيت عليهم السلام لا ينفذونها، فمن عمال معاوية على الكوفة والذي كان يبغض أهل الكوفة لرأيهم في الإمام علي عليه السلام النعمان بن بشير الذي كان يأبى أن ينجز لهم الزيادة في العطاء كرهاً وبغضاً إذ كان يردد ويقول: «والله لا أجيزها ولا أنفذها أبداً»، فذاقت الأمصار والبلدان الإسلامية طعم الإذلال، وعانت سياسة الاستعباد إلى أن هلك معاوية.

الحلقة الثالثة

سياسة معاوية في أخذ البيعة ليزيد

لقد كان معاوية بن أبي سفيان يعلم جيداً أنَّ الذي يلي الأمر من بعده سوف يلاقي الكثير من المتاعب والمشاكل قد ترقى إلى درجة التهديد الجدي لسلطان بني أمية الذي بنى بنيانه وشيد أركانه بمختلف الوسائل الملتوية التي لا تمت إلى دين الإسلام وتعاليم الرسولﷺ بصلة، وقد عزم معاوية على أن يعهد بالخلافة إلى ابنه يزيد من بعده، إلا أنَّه كان يتخوف كثيراً من إعلان رأيه هذا وكان لهذا التخوف أسباب موضوعية وجيهة يمكن تلخيصها في سببين رئيسين هما:-

الأول: شخصية يزيد الضعيفة والمتهتكة.

الثاني: جبهة المعارضة القوية.

لقد كانت شخصية يزيد بن معاوية شخصية شاذة منحرفة معروفة بشذوذها وانحرافها بين أوساط المسلمين، حيث عرف عنه التهتك والنزق

والخروج السافر على الأعراف والأخلاق والالتزامات الإسلامية بالإضافة إلى النزعة الإلحادية التي كان يتّصف بها، ولم يكن يمتلك تلك المؤهلات التي كان يمتلكها والده معاوية بن أبي سفيان، فلا هو يمتلك دهاء أبيه وقوته، ولا هو يمتلك قدرة أبيه على ضبط النفس والتظاهر بالالتزام والتخلي عن تهتكه، ولا هو يمتلك رصيد أبيه «المزيَّف» من الصحبة وما انتحله له المرتزقة الذين من حوله من مناقب وفضائل، وقد كان معاوية يتصف بالحذر والحيطة والتروي والدهاء وشراء الذمم، أما يزيد فقد كان على الضد من أبيه؛ فلقد كان من أبعد الناس عن الحذر والحيطة والتروي، كان إنساناً صغير العقل، متهوراً سطحي التفكير، وسياسته في معالجة المشاكل التي واجهته خلال حكمه تعزز وجهة النظر هذه، فأسلوبه في معالجة نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وأسلوبه في معالجة ثورة أهل المدينة، وأسلوبه في معالجة ثورة ابن الزبير تكرس القناعة عند الباحث في عدم كفاءة يزيد لإدارة سلطة بني أمية.

وتدل بعض الملاحظات التي ذكرها المؤرخون عن حياته العاطفية أنَّ هذا النزق والتهور والاستجابة السريعة العنيفة للانفعال ليست أموراً عارضة بل هي سمات أصيلة في شخصيته ونشأته، جعلته أضعف ما يكون صلة بالعقيدة الإسلامية التي يريد أن يحكم الناس باسمها وحياة التحلل التي عاشها قبل أن يلي الحكم والانسياق مع العاطفة، وتلبية كل رغباته، كل ذلك جعله عاجزاً عن التظاهر بالورع والتقوى، والتلبس بلباس الدين، هذا بالإضافة إلى طبيعته النزقة التي جعلته يعالن الناس بارتكاب المحرمات، ويقارف من الآثام ما

عرف الناس بمدى بعده عن الصلاحية لتولي منصب الحكم والسلطة.

والسبب الثاني الذي كان من أجله يتخوف معاوية من إعلان يزيد خليفة من بعده هو جبهة المعارضة القوية؛ حيث تمثلت جبهة المعارضة للحكم الأموي عامة ولتولي يزيد لولاية العهد ومن ثم استخلافه لمعاوية، في جبهتين قويتين:-

الأولى: جبهة المعارضة من داخل الجهاز الحاكم.

والثانية: جبهة المعارضة من خارج الجهاز الحاكم.

أما الجبهة الأولى فقد تمثَّلت في شخصيات من الأسرة الحاكمة كانت تمنِّي نفسها وتطمع بالإمارة والخلافة لمعاوية؛ لما تراه في نفسها من مؤهِّلات لا يمتلكها يزيد، من أمثال زياد بن أبيه الذي ثبَّت دعائم حكم معاوية في العراقيين، ومن أمثال مروان بن الحكم الذي كان يرى نفسه أولى بهذا الأمر من يزيد، ويرى أنَّه شيخ العشيرة وكبيرها، وكانت معارضته لاستخلاف يزيد قوية، وكذلك عبد الله بن عامر، وسعيد بن عثمان بن عفان، وغيرهم الكثير من آل أمية ممن أسند إليهم عثمان في حياته الولايات الكبرى في دولة الخلافة، وأما الجبهة الثانية فقد تمثَّلت في شخصيات من الصحابة، وأهل السابقة في الإسلام من المهاجرين والأنصار وأبنائهم، وعامة المسلمين في المدينة والعراق وغيرها من الأمصار.

قد جهد معاوية على خنق أي صوت معارض لبيعة يزيد سواء من

داخل الأسرة الحاكمة أو من خارجها، وذلك من خلال الترهيب والترغيب والإذلال أو من خلال توظيف مذهب الجبر لتبرير حال الأسرة الأموية، وإنَّ ما يحصل إنَّما هو قدر مقدَّر من الله وهذا هو المذهب الذي أسسه بني أمية لتركيز حكمهم، وفيما يلي بعض أساليبه:

يروى أنَّ يزيد بن المقنع العذري قام بين يدي معاوية خطيباً وقال: «أمير المؤمنين هذا» وأشار إلى معاوية، «فإن هلك فهذا» وأشار إلى يزيد، «فمن أبى فهذا» وأشار إلى سيفه!.

فقال له معاوية «اجلس، فإنَّك سيد الخطباء»، وبذلك صار السيف أصدق أنباءً من الكتب، والتهديد أفعل في النفوس من الإيمان، والخوف أطفأ لأيِّ غضبة للحقِّ، وصارت الخلافة من هذا الوقت، مُلكاً يورث ولو لفاسق، وإرثاً يُملَّك ولو لظالم، وضيعةً تُوهَب ولو لمفسد، ولم يعد للمسلمين في أمر الخلافة كلمة.

ويروى أنَّ معاوية أرسل إلى زياد بكتاب يدعوه فيه إلى أخذ البيعة ليزيد، فدعا زياد برجل من أصحابه يثق بفضله وفهمه، فقال: «إنِّي أريد أن أأتمنك على ما لم أأتمن عليه بطون الصحائف، ائتِ معاوية وقل له: يا أمير المؤمنين إنَّ كتابك ورد عليَّ كذا، فما يقول الناس إذا دعوناهم إلى بيعة يزيد؟، وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبَّغ، ويدمن شرب الخمر، ويمسي على الدفوف، وبحضرتهم الحسين بن علي عليه السلام وعبد الله بن عباس رضي الله عنه، ولكن تأمره

أن يتخلَّق بأخلاق هؤلاء حولاً أو حولين، فعسانا أن نموه على الناس»، إلا أنَّ معاوية كان أوفر دهاءً وكان زياد أذل عنده من أن تمر عليه مكيدته أو يعبأ بكلامه، فقد قام بتعنيفه ليخنق صوته وأصوات أمثاله المعترضين على قراره، وكتب معاوية إلى مروان بن الحكم وكان عامله على المدينة يعلمه باختيار يزيد ومبايعته إياه بولايته العهد ويأمره بمبايعته وأخذ البيعة له، فلما قرأ مروان ذلك خرج مغاضباً، حتى أتى دمشق فدخلها ودخل على معاوية وقال له: «أقم الأمور يا ابن أبي سفيان، واعدل عن تأمير الصبيان، واعلم أنَّ من قومك نظراء».

فقال له معاوية: «أنت نظيري ونظير يزيد من بعدي، وعدتنا في كل شديدة»، وجعله ولي عهد يزيد وردَّه إلى المدينة، ثم أنَّه عزله عنها ولم يف لمروان بما وعده، ومن الأساليب التي اتخذها معاوية لإخماد صوت المعارضة داخل البيت الأموي أسلوب الوقيعة بين النظراء من أعوانه، وضرب بعضهم ببعض، لاسيما بين آل عمومته من بني العاص، فمن خلال هذه الأساليب استطاع معاوية أن يخمد صوت المعارضة من داخل البيت الأموي من خلال مداراة بعض الأشخاص واسترضائهم وتمزيق شمل بعضٍ آخر، وترويض الآخرين على قبول فكرة استخلاف يزيد.

أما عن جبهة المعارضين لبيعة يزيد من خارج الأسرة الحاكمة فتمثَّلت في أمة من كبار المسلمين ومن أهل السابقة والجهاد وأهل التقوى والصلاح من المهاجرين والأنصار وأبنائهم وأحفادهم ومن عامة المجتمع الإسلامي الذي

اكتشف ما فيه الكفاية من عورات الحكم الأموي وذاق طعم عذابه وخبر ألواناً من تعسفه وظلمه في الأرزاق والكرامات، وانزاحت عن بصيرته الغشاوة التي رانت عليها في أول عهد معاوية، ولهذا حاول جاهداً وبما يمتلك من دهاء ومكر أن يقضي على صوت المعارضة هذه، وذلك من خلال تصفية بعض الشخصيات المهمة فيها واستمالة الآخرين إلى بيعة يزيد أو يضمن سكوتهم على الأقل عن يزيد وبيعته، وإنَّما أراد بذلك أن يسهل بيعة يزيد فلم يزل يروِّض الناس لبيعته سبع سنين ويشاور ويعطي الأقارب، ويداني الأباعد، والذي كان يقلق معاوية كثيراً من جبهة المعارضة هو موقف مدينة الرسول صلى الله عليه وآله ورجالاتها التي تعد القطب المناوئ القوي لتوجهات السياسة الأموية.

ولهذا كانت جهوده مضاعفة واهتماماته كبيرة لتسوية الأمور لصالح يزيد في المدينة، فقد بدأ السعي الحثيث منذ العام خمسين للهجرة وذلك حينما زار المدينة في سفره للحج؛ إذ قام بجمع رجالاتها واستثنى الحسن والحسين عليهما السلام ثم عرض عليهم بيعة يزيد ولكنه واجه ردوداً غير مُرضية من الجميع، فاستخدم أساليب التصفية الجسدية وهو أسلوب عرف عن معاوية في سبيل القضاء على من يخشى منافستهم في السلطان أو تعكير صفو السلطان عليه، فإنَّ الطريقة المثالية عنده في التخلص منهم هي القضاء عليهم بأقل ما يمكن من الضجيج، وقد أوجز أسلوبه هذا في كلمته المأثورة: «إنَّ لله جنوداً من عسل»، إذ مارس هذا الأسلوب في القضاء على مالك الأشتر النخعي وكذلك في سم الإمام الحسن عليه السلام.

الحلقة الرابعة

موقف الإمام الحسين عليه السلام

من البيعة ليزيد

تعد قضية بيعة يزيد من قبل الإمام الحسين عليه السلام من القضايا المفصلية والأساسية في النهضة الحسينية، ومن أجل إعطاء صورة واضحة عن هذا الموقف الحسيني لا بد من العودة إلى جذور هذا الرفض في حياة معاوية.

لقد فشلت كل المحاولات التي بذلها معاوية بن أبي سفيان قبل موته لتقييد الإمام الحسين عليه السلام ببيعة يزيد، أو ضمان سكوت الإمام عليه السلام عن يزيد وخلافته.

وهناك عدة مواقف ومكاتبات للإمام الحسين عليه السلام مع معاوية حين أخذ يعد الأمر لابنه يزيد من بعده، ومنها كتاب معاوية إلى الحسين بن علي عليه السلام الذي جاء فيه: «أما بعد، فقد انتهت إليَّ منك أمور لم أكن أظنك بها رغبة بك عنها، وإنَّ أحق الناس بالوفاء لمن أعطى بيعة من كان مثلك في خطرك وشرفك ومنزلتك التي أنزلك الله بها، فلا تنازع إلى قطيعتك، واتَّق الله، ولا تردَّن هذه

الأمة في فتنة، وانظر نفسك ودينك وأُمة محمد».

هذه الرسالة الموجزة من معاوية إلى الإمام الحسين عليه السلام تنطوي على كيد وتهديد ومكر كبير مغلف بغشاء رقيق من المديح الفارغ، فأجابه الإمام الحسين عليه السلام جواباً يحمل في ثناياه تلك الروح الحسينية المفعمة بالعزة والإباء، ووضع الأمور في نصابها من دون محاباة أو وجل أو خوف، قال عليه السلام في كتابه:

«أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنَّه انتهت إليك عني أمور لم تكن تظنني بها رغبة بي عنها، وإنَّ الحسنات لا يهدي لها ولا يسدد إليها إلا الله تعالى، وأما ما ذكرت أنَّه رقّى إليك عني، فإنَّما رقّاه الملّاقون، المشَّاؤون بالنميمة، المفرِّقون بين الجمع، وكذب الغاوون المارقون، ما أردتُ حرباً ولا خلافاً، وإنِّي لأخشى الله في ترك ذلك منك ومن حزبك القاسطين المُحلِّين، حزب الظالم، وأعوان الشيطان الرجيم، ألستَ قاتل حجرٍ! وأصحابه العابدين المخبتين! الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؟ فقتلتهم ظلماً وعدواناً، من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة، والعهود المؤكدة، جرأة على الله واستخفافاً بعهده وقلت فيما قلت: لا ترد هذه الأمة في فتنة وإنِّي لا أعلم لهم فتنة أعظم من إمارتك عليها، وقلت فيما قلت: انظر لنفسك ولدينك ولأُمة محمد صلى الله عليه وآله وإنِّي والله ما أعرف أفضل من جهادك، فإن أفعل فإنَّه قربةً إلى ربي، وإن لم أفعل فأستغفر الله لديني، وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى، وقلت فيما قلت: متى تكدني أكدك، فكدني يا معاوية فيما بدا لك، واتَّقِ الله يا معاوية، واعلم أنَّ لله كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، واعلم أنَّ الله ليس بناسٍ لك قتلك

بالظنَّة وأخذك بالتهمة، وإمارتك صبيَّاً يشرب الشراب، ويلعب بالكلاب، ما أراك إلا وقد أوبقتَ نفسك وأهلكتَ دينك وأضَعتَ الرعية، والسلام»[1].

يعد هذا الكتاب الحسيني وثيقة تأريخية مهمة جداً، تؤرخ من خلال سطورها سجل الدماء التي سفكها الأمويون من دون حق، وهي صرخة مدوية في وجه العبث والتلاعب والتجاوز الأموي.

كما أنَّه بيان لحقوق الشعب الذي لا يمكن التغاضي عنها مهما كان الأمر، وأيضاً يكشف لنا عن جانب من الأسباب التي دعته للخروج على يزيد فيما بعد.

لقد تمسك الإمام الحسين عليه السلام بموقفه من البيعة ليزيد حتى بعد وفاة معاوية سنة ستين للهجرة، حيث كان أكبرُ همٍّ ليزيد حين آلت إليه الأمور بعد موت أبيه هو أخذ البيعة من مدينة الرسول صلى الله عليه وآله عامة، ومن الشخصيات التي امتنعت عن بيعته خاصة، وكان أمير المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فكتب يزيد إليه كتاباً يخبره بموت معاوية، وكتاباً آخر جاء فيه:

«أما بعد، فخُذ حسيناً، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة، حتى يبايعوا فمن أبى عليك منهم، فاضرب عنقه وابعث إلي برأسه، والسلام»، فأرسل الوليد إلى الحسين وابن الزبير يدعوهما، فوجدهما في المسجد وهما جالسان، فأتاهما في ساعة لم يكن الوليد يجلس فيها

(١) الإمامة والسياسة: ١/ ٢٣٧.

للناس، فدعاهما إليه، وجاء الحسين عليه السلام إلى الوليد، فدخل عليه فوجد عنده مروان، فقرأه الوليد الكتاب ونعى له معاوية ودعاه إلى بيعته، ولقد آثر الحسين عليه السلام أن يتخلَّص من الوليد بالحسنى، فقال له: «**أما ما سألتني من البيعة، فإنَّ مثلي لا يعطي بيعته سرَّاً، ولا أراك تجتزي بها مني سراً دون أن تظهرها على رؤوس الناس علانيةً، فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس، فكان أمراً واحداً**»[1]، فقال له الوليد، وكان يحبُّ العافية: «فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس»، ولكن مروان قال للوليد: «والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها أبداً، حتى تكثر القتلى بينكم وبينه، احبس الرجل، ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه!»، فوثب عند ذلك الحسين عليه السلام وقال: «**كذبتَ والله ولَؤُمتَ**»[2]، ثم أقبل على الوليد، فقال: «**إنا أهل بيت النبوَّة، ومعدن الرِّسالة، ومُختلَف الملائكة، بنا فتح الله، وبنا ختم الله، ويزيد فاسق، فاجر، شارب للخمر، قاتل النفس المحترمة، مُعلِن بالفسق والفجور، ومثلي لا يبايع مثله**»[3].

بهذه الكلمات أعلن الحسين عليه السلام ثورته على الحكم الأموي الفاسد على عظمته وجبروته وقسوته في مؤاخذة الخارجين عليه، فقد مات معاوية وانقضى العهد والميثاق، وأصبح وجهاً لوجه أمام دوره التأريخي الذي يحتِّم عليه أن

(١) كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ١/ ٢٧٩.
(٢) الكامل في التاريخ: ٢/ ١٥١.
(٣) بحار الأنوار ٤٤/ ٣٢٥.

يصنعه، وإنَّه على يقين من أنَّ حكم يزيد لن يأخذ صفة شرعية مادام هو ممسكاً عن بيعته،أما إذا بايعه، فإنَّه حينئذ قد أكسب الغل الجديد الذي طوقت به الأُمة المسلمة صفة قانونية شرعية، وهذا شيء لا يفعله عليه السلام.

إنَّ ثمة فرقاً عظيماً بين أن تكون الأُمة راضخة لحكم ظالم، ولكنَّها تعلم أنَّه حكم بغير حقٍّ، وإنَّه حكم يجب أن يزول، وبين أن تخضع الأُمة لحكم ظالم وترى أنَّه حكم شرعي لا بد منه ولا يجوز تغييره.

إنَّ الأُمة في الحالة الثانية ترى أنَّ حياتها تعسة، وأنَّ التشريد والجوع والحرمان والذل هو قدرها الذي لا مفر منه، وهو مصيرها المحتوم الذي لا بد أن تصير إليه، وحينئذ يقضى على كل أملٍ في تغيير الأوضاع، ومعها يضمحل كل أمل في الثورة، وإذ تدعم الأُمة جلاديها بدل أن تثور عليهم، ويصار إلى الرضا بما هو.

أما حين تخضع الأمة وهي تعلم أنَّ الحاكم لا حقَّ له، ولا شرعية، فحينئذ كائن بحسبانها ما ينبغي أن يكون، ويبقى الأمل في التغيير حياً نابضاً، وتبقى الثورة مشتعلة في النفوس، وحينئذ يكون للثائرين مجال للعمل؛ لأنَّ التربة معدَّة للثورة، وعند ذلك أعلن ثورته بهذه الكلمات التي أجمل فيها أسباب الثورة وهي: التهتك، والتطاول على الدين، والاستهتار بحقوق الشعب من قبل يزيد بن معاوية وولاته وأزلام الحكم الأموي.

الحلقة الخامسة

صدق النهضة الحسينية

من أهم السمات التي اتصفت بها نهضة العز للإمام الحسين عليه السلام صفة الصدق مع المبادئ، والصراحة والشفافية في بيان الأهداف الرسالية التي قام من أجلها، وهذه الصراحة والوضوح والشفافية التي اعتمدها الإمام الحسين عليه السلام كمنهج في تعامله مع قضية البيعة ليزيد نجدها واضحة في كلماته التي قالها في مجلس والي الأمويين الوليد عندما طلب منه البيعة، قال عليه السلام: «**ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحرَّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله**»[1]، فالحسين عليه السلام حامل رسالة، وحَمَلَة الرسالات من الأنبياء والرُّسل والأوصياء لا يمكن ولا ينبغي لهم أن يعتمدوا الخطابات المبهمة، أو أن يحجبوا الحقائق عن الناس أو يبهموا عليهم الأمور؛ لأنَّ الأمة تقتفي أثر قائدها، وتستجلي المواقف من خلاله، فمن حقِّ الأُمة على القائد أن يبيِّن

(١) بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٢٥.

لهم الموقف بشكل صريح وواضح؛ لأنَّه المرآة التي تنعكس من خلالها حقائق الأمور، ومن أولى من الحسين عليه السلام بهذه الصفات وهو الإمام المعصوم والقائد الرباني ووارث الأنبياء، ومقتفي لآثارهم، ولهذا نجد أنَّ هذه الصراحة الحسينية في رفض البيعة تذكِّرنا بالصراحة النبوية التي رفض بها الرسول الله صلى الله عليه وآله كل ما عرضت عليه قريش من الامتيازات العظمى من الثروة والجاه والملك، حيث كان جوابه صلى الله عليه وآله: «**يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ماتركته**»[1]، في الوقت الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله محاصراً في مكة، ولم يكن له من الأصحاب وحملة الدعوة إلا نفر قليل من المستضعفين، ممن يخافون أن يتخطَّفهم الناس من حولهم.

بعد أن رفض الحسين عليه السلام البيعة ليزيد لم يبق أمامه سوى خيار المواجهة مع أجهزة النظام الحاكم، فلا بُدَّ من اختيار الآلية المناسبة لهذه المواجهة، ولأسباب كثيرة لم تكن المدينة المكان المناسب لهذه المواجهة، اختار الخروج إلى مكة؛ لتكون المحطة الأولى لحركته، لقد كان الإمام الحسين عليه السلام يعلم جيداً بأنَّه سوف لا يترك آمناً ما لم يبايع، ولهذا قال عليه السلام لأخيه محمد بن الحنفية عندما أشار إليه أن ينجو بنفسه من يزيد، قال: «**والله يا أخي لو كنتُ في حجر هامة من هوام الأرض، لأستخرجوني منه حتى يقتلوني**»[2]، إلا أنَّ وضوح المصير الذي سوف تؤول إليه حركته وهو القتل والشهادة، لم يجعله يرضخ لذل البيعة وهوانها وتبعاتها،

(١) بحار الأنوار: ١٨/ ١٨٢.

(٢) الخصائص الحسينية: ٢١/ ٧.

ولهذا يروى عنه عليه السلام من كلامه لمحمد بن الحنفية أيضاً: «**يا أخي والله لو لم يكن في الدُّنيا ملجأ ولا مأوى، لما بايعت يزيد بن معاوية**»[1]، ولم يكن الحسين عليه السلام خائفاً مرعوباً عند خروجه من المدينة، وكانت تلاوته للآية القرآنية: ﴿**فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[2]، حين خروجه من المدينة إلى مكة فيها إيحاءات ودلالات أخرى غير دلالة الخوف، ولهذا عندما طلب منه عليه السلام أن يعدل عن الطريق الأعظم وأن يسلك طريقاً آخر كما فعل ابن الزبير مخافة أن يلحقه الطلب قال عليه السلام: «**لا والله، لا فارقتُ هذا الطريق أبداً أو أنظر إلى أبيات مكة أو يقضي الله في ذلك ما يحبُّ ويرضى**»[3].

لقد كانت هجرة الحسين عليه السلام من المدينة إلى مكة كهجرة موسى بن عمران إلى أرض مدين، فكل منهما قد فرَّ من فرعون زمانه، وهاجر لمقاومة الظلم والطغيان، لقد رضي الحسين عليه السلام بكل قضاء يبرمه الله، ولم يضعف، ولم توهن عزيمته الأحداث الهائلة التي لا يطيقها أيّ إنسان، فقد روي عن الإمام علي بن محمد عليه السلام أنَّه قال: «**لما همَّ الحسين عليه السلام بالشخوص عن المدينة أقبلت نساء بني عبد المطلب فاجتمعن للنياحة حتى مشى فيهنَّ الحسين عليه السلام فقال: أنشدكنَّ الله أن تُبدينَّ هذا الأمر معصية لله ولرسوله**»[4]، **فقالت له نساء عبد المطلب: «فلمن نستبقي النياحة والبكاء فهو عندنا كيوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي**

(١) بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٢٩.

(٢) القصص: ٢١.

(٣) السيدة زينب رائدة الجهاد في الإسلام: ١٠/ ١.

(٤) كامل الزيارات: ٩٦.

وفاطمة عليها السلام، فننشدك الله جُعِلنا فداك من الموت، يا حبيب الأبرار من أهل القبور»، وأقبلت بعض عماته تبكي وتقول: أشهد يا حسين لقد سمعت الجن ناحت بنوحك وهم يقولون:

فـإنَّ قتيـل الـطَّـف مـن آل هـاشـم
أذلَّ رقـابـاً مـن قـريـش فـذلَّـتِ
حبيب رسـول الله لم يـكُ فاحشاً
أبـانَـت مصيبتك الأنـوف وجلَّـتِ

كان دخول الحسين عليه السلام إلى مكة في أوائل شهر شعبان من سنة ستين من الهجرة، حيث اتَّخذ من دار العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه مقراً ومسكناً له، وشهر شعبان وما يليه من الشهور هي أشهر وفادة الناس إلى العمرة والاستعداد لموسم الحج، حيث يفد الناس من كل فجٍّ عميق ليشهدوا منافع لهم ومن أهمها بعد الجانب الروحي والعبادي هو لقاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ممن يسكنون مكة، أو من الذين يفدون إليها من خارجها وإذا كان لكل موسم من مواسم الحج شخصية تلفت الأنظار وتستقطب الناس، فلقد كانت شخصية الإمام الحسين عليه السلام وبما يمتلك من رصيد إيماني وعقيدي ونسبي شخصية هذا الموسم، من حيث إنَّه عليه السلام ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسبطه الذي خلفه في أُمَّته وابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بما يمتلك علي عليه السلام من تأريخ في مسيرة الإسلام الكبرى، وهو إمام المسلمين وفقيههم ومرجعهم في أمور دينهم ودنياهم.

لهذه المزايا المجتمعة في شخصه عليه السلام أصبح مركز استقطاب أهل مكة

والوافدين عليها، وعكف الناس بمكة يفدون إليه، ويجلسون حواليه، وينتفعون بما يسمعون منه، ويضبطون ما يروون عنه، وقد سخَّر الإمام الحسين عليه السلام موسم الحج وتجمع الناس في مكة لصالح قضيته التي خرج من أجلها تاركاً مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وهي قضية الإسلام الكبرى والتي تتمثَّل في الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاستنان بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وهديه، وكانت هذه أهداف الإمام الحسين عليه السلام والتي أعلنها في المدينة قبل خروجه منها من خلال وصيَّته التي كتبها إلى محمد بن الحنفية والتي جاء فيها: «**إنِّي لم أخرج أشراً ولا بَطِراً ولا مُفسِداً ولا ظالماً، وإنَّما خرجتُ لطلب الإصلاح في أُمَّة جدي وأبي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردَّ عليَّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين**»[1].

هذه هي أهداف الإمام الحسين عليه السلام وغاياته من خروجه من المدينة رافضاً بيعة يزيد، داحضاً بذلك مزاعم الأمويين وأذنابهم ممن يموهون على الأمة الإسلامية بأنَّ الحسين خارج على خليفة زمانه، ويريد شق وتفريق كلمة المسلمين، واستهواء الناس إلى نفسه، وطلب السلطة والرئاسة وغيرهما من الدعاوى التي تبنّتها لاحقاً أقلام أموية الشام من أمثال ابن تيمية، وابن كثير وأموية الأندلس من أمثال ابن حزم وابن العربي ومن سار على خطِّهم ومنهجهم لتبرير جرائم الأمويين واستئصالهم لآل رسول الله صلى الله عليه وآله.

(١) سيرة الأئمة عليهم السلام: ٦/ ٢٠.

الحلقة السادسة

الجذور التأريخية لتحرك الكوفة

لقد عاشت الكوفة وأهلها أحداثاً تأريخية كبيرة، ومن أهمها استشهاد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على أيدي الخوارج، ثم خلافة الحسن بن علي عليه السلام القصيرة، ومن ثم صلح الإمام الحسن عليه السلام والذي كان له مبررات موضوعية كثيرة شخّصها الإمام عليه السلام وعاش مرارتها بنفسه، فقد عاش الإمام عليه السلام فترة عصيبة تقلَّبت فيها الأهواء، وكثرت فيها الخيانة، واشتُرِيَت الذمم بأموال معاوية، حتى وصل الأمر إلى الاعتداء من قبل بعض الرعاع.

ولم يكن معاوية وفياً لبنود الصلح مع الإمام الحسن عليه السلام والتي تنص بعضها على عدم ملاحقة شيعة الإمام علي عليه السلام وأصحابه، وبموت معاوية انتعشت آمال الشيعة مرة أخرى، بعد أن وصلوا إلى حالة اليأس من إصلاح الوضع القائم في وجوده، إلا أنَّ هذه الآمال سرعان ما تبدَّدت بعد أن أصبح الحكم وراثياً، وأصبح يزيد بن معاوية خليفة للمسلمين مع ما عرف عن يزيد

من فسق وفجور وانتهاك للحرمات إلا أنَّ أنظار الشيعة في الكوفة كانت شاخصة نحو المدينة يترقبون موقف الإمام الحسين عليه السلام من خلافة يزيد بن معاوية، وما أن وصلهم خبر رفض الحسين عليه السلام لبيعة يزيد وخروجه إلى مكة حتى اجتمعوا وتشاوروا في الأمر متفاعلين مع الأحداث المتسارعة كي لا تسبقهم، فهي فرصتهم التي عاشوا حلمهم طيلة عشرين سنة عجفاء، وبعد أن تلاقت الرسل عند الحسين عليه السلام قرأ الكتب، وسأل الرسل عن أمر الناس، ثم كتب مع آخر رسولين إليه رسالة مختصرة في ألفاظها جليلة في مضامينها جاء فيها:

«**بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين، أما بعد، فإنَّ هانئاً وسعيداً قدما عليَّ بكتبكم وكانا آخر من قدم عليَّ من رُسلكم وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتكم، ومقالة جُلِّكم أنّه ليس علينا إمام فاقبل لعلَّ الله يجمعنا بك على الهدى والحق، وقد بعثت إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب لكم إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إليَّ أنَّه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت عليَّ به رسلكم وقرأتُ في كتبكم، أقدم عليكم وشيكاً، إن شاء الله، فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله، والسلام**»[1]، هذا الكتاب الذي أرسله الإمام الحسين عليه السلام وعلى وجازته يتضمن جملة من الأمور وهي:-

(١) بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٣٤.

أولاً:- إنَّ مقالة هؤلاء في كتبهم له قاسم مشترك وهو عدم وجود الإمام العادل الذي يهديهم إلى طريق الهدى والحق، ويتطلَّعون بشوق إلى هكذا إمام بعد أن ذاقوا ظلم ولاة بني أمية من زياد بن أبيه إلى المغيرة إلى النعمان بن بشير الذي قد يكون أهونهم ظلماً وتعسفاً.

ثانياً:- تأسيساً على الأمر الأول فإنَّهم يطلبون من الإمام الحسين عليه السلام أن يقدم إليهم وشيكاً لعلَّ الله يجمعهم بواسطته على الهدى والحق، وبمعنى آخر أنَّ هؤلاء قد شخصوا لهذه المرحلة الخطيرة شخصية الإمام الحسين عليه السلام يحمل لهم راية الهدى والحق ويجمعهم على كلمة التقوى.

ثالثاً:- إنَّ الإمام عليه السلام لم يستنكر على هؤلاء مطالبهم، فهي مطالب مشروعة ومن صميم تعاليم الإسلام، بل إنَّ فلسفة هذا الدين الحنيف يقوم على حاكمية الحق والعدل، ولهذا أقرَّهم الإمام على ذلك ولم يعتذر منهم كما اعتذر عن ذلك في حياة الإمام الحسن عليه السلام أو بعد وفاته وقبل هلاك معاوية، فالظروف الآن مؤاتية، والمرحلة الحرجة التي تمر على الأمة الإسلامية تستوجب تحمل المسؤولية والاستجابة لمطالب الأمة.

رابعاً:- إنَّ الإمام عليه السلام يبعث إليهم من يمثله من أهل بيته «مسلم بن عقيل»، ويعرفه لهم بأنَّه: «**أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي**» ومهمته استطلاع الأحوال والآراء ميدانياً ثم الكتابة إلى الإمام عليه السلام عما أجمع عليه أصحاب الرأي والتدبير وذوو الفضل والحجى منهم، فإذا حصل هذا الإجماع منهم فإنَّه عليه السلام

يقدم إليهم وشيكاً.

خامساً:- يختتم الإمام عليه السلام رسالته بتشخيص دقيق للمواصفات الدقيقة والحساسة لمنصب الإمامة والحاكمية، فمن هو الإمام؟ يقول: «**العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله**».

وهذه المواصفات التي يذكرها الإمام عليه السلام ما هي إلا قبس من المواصفات الإلهية التي بينتها آيات القرآن الكريم في أكثر من موضع وفي مناسبات متعددة، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[1].

(١) الحديد: ٢٥.

الحلقة السابعة

الثوابت التي تضمَّنتها خطب الإمام الحسين عليه السلام

لم يكن الإمام الحسين عليه السلام ناوياً من أول الأمر المكوث في مكة واستيطانها، وإنَّما كانت مكة محطة من محطات سفره إلى الشهادة والعروج إلى الله سبحانه وتعالى، وقد ذكر المؤرخون وكتّاب المقاتل أنَّ الإمام الحسين عليه السلام قبل خروجه إلى العراق خطب خطبة في مكة، وبعث برسالة إلى بني هاشم في المدينة.

أما الخطبة، فقد روي أنَّه عليه السلام لما عزم على الخروج إلى العراق قام خطيباً فقال: «**الحمد لله ما شاء الله ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على رسوله، خُطَّ الموت على ولد آدم مَخَطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخِيرَ لي مصرع أنا لاقيه، كأنِّي بأوصالي تقطِّعُها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأنَّ مني أكراشاً جوفاً وأجربةً سغباً، لا محيص عن يوم خُطَّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفِّينا أجر**

الصابرين لن تشذُّ عن رسول الله ﷺ لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس، تَقُرّ بهم عينه ويُنجَز بهم وعده، ألا من كان باذلاً فينا مهجته، وموطِّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإنَّني راحل مصبحاً إن شاء الله»[1].

وأما الرسالة فقد جاء فيها بعد البسملة: «**من الحسين بن علي إلى أخيه محمد، ومن قبله من بني هاشم، أما بعد: فإنه من لحق بي منكم استشهد، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح والسلام**»[2]، وفي هذين النصين «الخطبة والرسالة» آفاق واسعة من الفكر والفهم والوعي الثوري وتختزل ألفاظها -على وجازتها- كل الثوابت التي انطلق من أجلها الإمام الحسين عليه السلام في نهضته، والذي يتأمل في هذين النصين يجد أنَّ الإمام الحسين عليه السلام قد شخص وبدقة وبصيرة نافذة أنَّ ما تحتاجه الأمة في حركتها وفاعليتها وعزَّتها وكرامتها في ظروفها العصيبة التي تمر بها هو الشهادة في سبيل الله، فكانت حركته عليه السلام حركة استشهادية واعية وبإرادة وتصميم عاليين، وهيَّأ لها كل أسباب الإثارة وكل عوامل الديمومة والبقاء، لتبقى دائماً المحرك المفصلي للأمة الإسلامية حينما تبتلى بحاكم ظالم يحاول أن يسلبها حريتها وعزتها وكرامتها.

إنَّ الحسين عليه السلام من أول الأمر لم يطلب منصباً سياسياً، وإنَّما طلب تغييراً كاملاً، وتغيير أمة برمَّتها، وتغيير نظام برمَّته وتغيير فهم ونهج برمَّتهما، وذلك فنهضته من أول الأمر كانت استشهادية.

---

(١) بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٦٦.

(٢) بحار الأنوار: ٤٥/ ٨٧، كامل الزيارات: ١/ ١٤٣.

إنَّ الثوابت التي تضمَّنتها كلمات الإمام الحسين عليه السلام في هذين النصَّين يمكن إيجازها بما يلي:-

١- حتمية الشهادة:-

يقول الإمام الحسين عليه السلام: «**من لَحِقَ بي استشهد**»، ويقول أيضاً: «**خُطَّ الموت على ولد آدم**»، فالشهادة مصير حتمي لمن يخرج مع الحسين عليه السلام والإمام أكَّد على هذا المصير ووطَّن نفسه ونفوس أصحابه وأهل بيته عليها إلى يوم استشهاده.

٢- حتمية الفتح:-

وتعرف هذه الحتمية من مفهوم كلامه عليه السلام: «**ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح**»، فإنَّ من لحق بالحسين عليه السلام في هذه الحركة يدرك الفتح، فالحسين عليه السلام هو الفاتح وهو المنتصر ويزيد ونظام الحكم الأموي هو المنهزم، والذي يتخلف عن الحسين في حركته لا يدرك هذا الفتح، والإمام الحسين عليه السلام لا يريد بالفتح العسكري في ميدان المعركة، والذي يطلبه عادة القادة العسكريون في حروبهم، فقد كان الإمام عليه السلام وقد أخبر بالحالة السياسة في العراق من أن يتوقع فتحاً عسكرياً وإنَّما يتلخص مفهوم الفتح الذي يريده الإمام الحسين عليه السلام في أمرين:-

١- إلغاء صفة الحكم.

٢- إعادة روح الجهاد والمسؤولية والمقاومة إلى الناس بعد أن سلبها منهم بنو أمية من خلال أساليب الإرهاب والبطش، وذلك من خلال هز ضمير

الأمة الإسلامية هزة عنيفة تعيدها إلى وعيها وإرادتها وقوتها، ففي تحقق هذين الأمرين الفتح الحقيقي للأمة الإسلامية.

٣- العلاقة بين الفتح والشهادة:-

من خلال الحتميتين الأولى والثانية، نستفيد هذه الحتمية الثالثة، فإنَّ الفتح الذي يبتغيه الإمام الحسين عليه السلام لا يمكن أن يأتي إلا من خلال الشهادة وبدماء غزيرة وعزيزة، وتضحية فريدة بنفسه وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام، تهز ضمير الأمة وتعيدها إلى وعيها ورشدها، وحالتها الطبيعية التي ينبغي أن تكون عليها.

٤- عدم تكرار هذا الفتح في التأريخ:-

يقول الإمام الحسين عليه السلام: «**ومن لم يلحق بي لم يُدرك الفتح**»، فإنَّ الفتح الذي أجراه الله على يد الحسين عليه السلام وأنصاره لن يتكرر مرة أخرى في التأريخ، وفتح عاشوراء فتح ليس بعده سقوط وهذا هو الذي يقرره الإمام الحسين في كتابه إلى محمد بن الحنفية رضي الله عنه.

لقد استحوذ بنو أمية على كل المساحة الإسلامية، وعلى كل مواقع القوة والنفوذ في المجتمع الإسلامي، وذلك من خلال موقع الشرعية السياسية، وهو موقع خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان من هذا الموقع يأخذ الناس الحلال والحرام ومعالم الشريعة لهذا الدِّين، فعمل بنو أمية على تحريف هذا الدِّين من هذا الموقع بالذات، ولو كان الأمر يستقيم لهم لم يبق من الإسلام إلّا الاسم.

الحلقة الثامنة

المواقف التي واجهها عليه السلام

عند خروجه إلى العراق

يـا مَـن تـصـدَّى لـلـطـغـاةِ بنهجهِ
ومـشـى يـــردِّد لـلـعـدى مـسراكـا
يـا أيُّهـا الـسـبـط المـخـضَّـب بـالـدمـا
عـبـق الـرسـالـة يـرتـوي بـحـماكـا
يـا قـبـلـة الأحـــرار صـوتـك منقذٌ
في كـل حـــينٍ يحـــذروه عِـداكـا

عندما نطَّلع على الحياة السياسية في مكة قبل خروج الإمام الحسين عليه السلام منها قاصداً العراق، نجد موجة واسعة من الاعتراضات والمؤاخذات التي واجهها الإمام الحسين عليه السلام حين عزم على الخروج إلى العراق، ومصدرها مجموعة من الشخصيات السياسة والدينية والاجتماعية، واستخدمت في هذه الاعتراضات

والمؤاخذات إما لغة التهديد والوعيد، أو لغة النصيحة والإشفاق والمحبة، أو لغة الخوف والرهبة، بحسب الأشخاص الذين تبنوا وجهة النظر هذه أو تلك، وهدف كل هؤلاء هو منع الحسين عليه السلام من الخروج إلى العراق.

ودراسة هذه الاعتراضات والمؤاخذات التي لاقاها الحسين عليه السلام حين خروجه تعطينا فكرة واضحة عن الساحة السياسية التي انطلق منها الإمام الحسين عليه السلام في نهضته وكل ساحة سياسية متشابهة ينطلق فيها قائد أو حركة سياسية اصلاحية هدفها تغيير أو تصحيح الأوضاع القائمة، ومن خلال استعراض كلمات ومواقف وخلفيات المعارضين لخروج الحسين عليه السلام يمكننا أن نصنف هؤلاء إلى ثلاث طوائف رئيسية، ولكل طائفة الذي تبتغيه من وراء محاولة منع الإمام الحسين عليه السلام من الخروج إلى العراق وهذه الطوائف هي:-

الطائفة الأولى: الأمويون والسلطة الحاكمة.

الطائفة الثانية: الخائفون والمرعوبون.

الطائفة الثالثة: المحبون والمشفقون والناصحون.

وهناك نماذج من مواقف وكلمات كل طائفة من هذه الطوائف والأصناف الثلاث وغاياتها لخروج الإمام عليه السلام.

أولى الطوائف التي عارضت خروج الإمام الحسين عليه السلام إلى العراق هي طائفة الأمويين والسلطة الحاكمة، ويمثلها والي الأمويين على مكة «عمرو بن سعيد الأشدق» الذي كتب إلى الحسين كتاباً فيه الأمان للإمام الحسين عليه السلام،

ويمنِّيه فيه البِّر والصلة مع مسحة خفيفة من الإشفاق والنصح، ومما جاء في رسالته:

«أما بعد، فإنِّي أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك، وأن يهديك لما يرشدك، وبلغني أنَّك قد توجَّهتَ إلى العراق، وإنِّي أُعيذُك بالله من الشقاق، فإنِّي أخاف عليك فيه الهلاك... فأقبل إليَّ، فإنَّ لك عندي الأمان والصلة».

لم يكن الأمويون والجهاز الحاكم ومن يمثلهم من أمثال عمرو بن سعيد الأشدق من المشفقين والمحبين للامام الحسين عليه السلام، وهذه الرسالة على وجازتها تنطوي على لؤم وخبث وكيد ومكر وخطة مدبرة تريد أن تكيد بالإمام الحسين عليه السلام لمنعه من السفر ومحاصرته، ومن ثم اغتياله في الحرم بعد انتهاء موسم الحج ورجوع الحُجّاج إلى بلادهم، إذ أنَّ الأشدق كان يعلم جيداً أنَّ الإمام الحسين عليه السلام لا يقاتلهم في الحرم الشريف صوناً له، وكان عليه السلام يقول لابن الزبير عندما طلب منه البقاء في الحرم: «**والله لَئِن أُقتَل خارجاً منها بشبرٍ أحب إليَّ من أن أُقتل داخلاً منها بشبرٍ**»[1].

والإمام الحسين عليه السلام شخَّص وبدقة وبصيرة ما يبتغيه الأشدق من رسالته مع ما فيها من مسحة الإشفاق والنصح، فأجابه برسالة فيها أدب جم وصرامة وقوة وعزة وإباء ومما جاء في رسالته عليه السلام: «**أما بعد، فإنَّه لم يشاقق الله ورسوله من دعا إلى الله عزَّ وجلَّ وعمل صالحاً وقال إنَّني من المسلمين، وقد دعوت إلى**

(١) كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ١/ ٣٢٠.

الأمان والبر والصلة، فخير الأمان أمان الله، ولن يؤمِّن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدُّنيا، فنسأل الله مخافةً في الدُّنيا توجب لنا أمانه يوم القيامة، فإن كنت نويتَ بالكتاب صلتي وبِرّي، فجُزيتَ خيراً في الدُّنيا والآخرة، والسلام»[1].

أما الطائفة الثانية فهي الخائفون والمرعوبون، فإذا أردنا أن نستعرض مواقف هذه الطائفة من خلال كلماتهم ونصائحهم التي قدَّموها للإمام الحسين عليه السلام نجد أنَّ مصدر المعارضة لخروج الحسين عليه السلام عند هؤلاء لم يكن الكيد والمكر بالحسين عليه السلام.

إنَّ كل المعطيات العملية لهؤلاء تشير إلى أنَّ مصدر المعارضة عندهم هو الخوف والضعف والجبن، فكانوا يخافون من عاقبة حركة الإمام الحسين عليه السلام مع امتداد سيطرة ونفوذ الخلافة الأموية من دمشق إلى آفاق البلاد الإسلامية، ولم يكن يخطر في بالهم أنَّ أحداً من الناس يمكنه أن يفكر في الخروج على سلطان بني أمية العريض، وإنموذج هؤلاء البارز هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، الشخصية المعروفة، وصاحب النظرية الشهيرة في التعامل مع السلطان والحاكم حتى ولو كان على مستوى يزيد بن معاوية في فسقه وفجوره وانتهاكه للحرمات، والذي نتصوَّره أنَّ أحد الأسباب الرئيسية التي ألجأت عبد الله بن عمر إلى هذا الموقف المتخاذل، والذي أخذ ينظر له بهذا التنظير الخطير متناسياً كل الثوابت الجهادية في الإسلام، ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو عامل الضعف والجبن والخوف من سلطان بني أمية، وكانت عاقبة هذا الرجل

(١) معالم المدرستين: ٣/ ٦١، مقتل الحسين: ٧/ ٩.

أن يبايع يزيد ولم يبد له أي مقاومة تذكر في الامتناع عن البيعة، بل حاول جاهداً أن يسلب الشرعية من كل حركة جهادية تطال بني أمية وسلطانهم، فهو الذي ندد بخروج الإمام الحسين عليه السلام واعتبره خروجاً على جماعة المسلمين.

أما الطائفة الثالثة وهم المحبون المشفقون، فهم من رجالات بني هاشم وغيرهم من أمثال عبد الله بن عباس، ومحمد بن الحنفية، وعبد الله بن جعفر الطيار رضي الله عنه، وغيرهم من أمثال أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا يمكن أن نصنف هؤلاء مع الطائفة الأولى فبعض هؤلاء أجل وأسمى من أن يكيدوا بالحسين عليه السلام، ولا نتهمهم بالخوف والجبن والضعف لمواقفهم المعروفة بالشجاعة قولاً وعملاً، فهم من المحبين للحسين عليه السلام والمشفقين عليه، إلا أنَّهم لم يستوعبوا غاية الحسين عليه السلام من خروجه إلى العراق، وكانوا يتكلمون بلغة العاطفة ويفكِّرون في شيءٍ لم يكن الإمام عليه السلام يفكر فيه، فهؤلاء كانوا يتصوَّرون أنَّ الحسين عليه السلام خارج إلى العراق لأحد أمرين لا ثالث لهما، فهو إما خارج الى العراق هرباً من سلطة يزيد وولاة بني أمية، والعراق بنظر هؤلاء لا يصلح لكلا الأمرين، فلا هو البلد الذي يصلح للخروج على سلطان بني أمية عسكرياً ولا هو البلد الذي يصلح للهروب والاحتماء به طلباً للسلامة والعافية، فالعراق كان تحت سيطرة وقبضة وسلطان بني أمية ويكفي أن يكون عبيد الله بن زياد والياً لهم على البصرة ومؤهَّلاً لولاية الكوفة، مع ما عُرِف عنه من سفك الدماء وهتك الحرمات، فلا يأمل أحد في مجموعة صغيرة من الشيعة مجردة عن مصادر القوة والسلاح، ومعزولة عن الوقائع الاجتماعية والسياسية المهمة، تستطيع أن

تخرج على سلطان بني أمية وتسقط الخلافة الأموية في العراق فضلاً عن الشام.

أما الفرضية الثانية وهي تفترض أنَّ الحسين خرج إلى العراق كي يحتمي به هرباً من الأمويين، وهي فرضية واهية جداً؛ لأنَّ العراق بلد مكشوف وفي متناول سلطان بني أمية، وفي جوار الشام عاصمة الأمويين، وليس في العراق جبال وعرة وكهوف وحصون وغابات، والعمران يمتد من شماله إلى جنوبه، فلا يستطيع الحسين عليه السلام أن يحتمي بمثل هكذا بلد وينجو بنفسه من ملاحقة الأمويين.

وانطلاقاً من هذين الأمرين نجد أنَّ هؤلاء المحبين والمشفقين من بني هاشم يلحون على الإمام الحسين عليه السلام بعدم الخروج إلى العراق إلا أنَّ الإمام رفض هذا الخيار لأسباب موضوعية كثيرة أفصح عن بعضها من خلال جوابه لابن عباس: «**هيهات، هيهات يا بن عباس إنَّ القوم لن يتركوني، وإنَّهم يطلبوني أين كنت حتى أبايعهم كرهاً أو يقتلوني، والله إنَّهم ليعتدون عليَّ كما اعتدت اليهود في يوم السبت**»[1].

(١) كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ١/ ٣١٧.

الحلقة التاسعة

شخصية مسلم بن عقيل رضي الله عنه

مازلنا نستعرض أحداث نهضة العز والشموخ، وسنسلط الضوء على شخصية تميزت بالعلم والعقل والتدبير والسداد والشجاعة، شخصية قال بحقها إمام العزة والإباء الحسين عليه السلام: «**أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم ابن عقيل** رضي الله عنه».

كان مسلم بن عقيل رضي الله عنه مدني النشأة، حجازي البيئة والتربية، ولد في دارهم المعروفة بدار عقيل والتي صارت أخيراً مقبرة لآل أبي طالب وهي في أول البقيع، تربى في حجر أبيه عقيل، ولازم عمه أمير المؤمنين وابنيه الإمامين الحسن والحسين عليهم السلام، فنشأ مسلم مع العلم والتقوى والبطولة والهدى والحزم والحجى والرشد، كما شاء له المولى سبحانه وتعالى حتى أحبَّ لقاءه يوم سعادته بشهادته.

أما علمه فقد نشأ في بيت لا يقع نظره إلا على أستاذ في العلم، أو مقتدى في

الأخلاق، أو زعيم في الدين، أو بطل في الشجاعة، أو إمام في البلاغة.

تربى الشهيد مسلم بن عقيل رضي الله عنه في بيت ورث فيه الشجاعة من حمزة إلى جعفر إلى سيد شجعانهم علي بن ابي طالب عليه السلام إلى الحسن والحسين عليهما السلام وكان على ميمنة أمير المؤمنين عليه السلام في حرب صفين، إلى جانب الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر عليهم السلام، ووجوده في هذا الموقع، وإلى جانب هؤلاء الشجعان يدل على أنَّه في مستوى من الشجاعة العظيمة، ويكفينا في بيان عظيم منزلته صريح كلام الإمام الحسين عليه السلام في كتابه لأهل الكوفة حيث قال: «**وقد بعثتُ إليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي**»[1].

والإمام عليه السلام لا يرسل كلامه جزافاً، ولا يسبغ على شخص من الصفات ما لم يستحقها، ولا يقول ثقتي إلا لمن خلص وصفى وتمحَّض ولاؤه وإيمانه، فإنَّ لفظة «ثقتي» عليها اعتماد الفقهاء، وحملة الحديث وهي حجة قاطعة لكل شك، ولم ينلها من أصحاب الأئمة إلا النفر القليل من خواصهم وحواريهم، ويكفينا في معرفة منزلة الشهيد مسلم بن عقيل، بعد ما قاله الإمام الحسين عليه السلام في حقِّه، عظم المسؤولية التي تحمَّلها بجدارة وشجاعة، حيث رشَّحه الحسين للسفارة إلى العراق، وإلى الكوفة بالذات، والكوفة في ذلك الوقت ملتقى الحضارات والثقافات والأجناس البشرية من العرب والفرس والنبط، وتتنوع فيها الأديان والمذاهب والاتجاهات الفكرية والعقائدية بالإضافة إلى مكانتها في قلب الأحداث الإسلامية؛ إذ كانت بمثابة المفصل الرئيسي في بسط النفوذ

(١) بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٣٤.

على العالم الإسلامي كله، وكانت بمثابة البركان الهادر الذي لا يمكن الوقوف أمامه إلا بعد أن يدمِّر كل شيء.

هكذا كانت الكوفة وأهلها، فكيف بها وقد ماجت بعد هلاك معاوية وتزلزل الحكم الأموي، فلم تكن مهمة مسلم بن عقيل رضي الله عنه مهمة سهلة مريحة وإنَّما كانت مهمة خطيرة تحف بها الأهوال والمخاوف من الناس الذين وفد عليهم حيث تقلب الأهواء وتنوع الاتجاهات، ومن الحكومة المركزية التي يكفيها أن يكون واليها على البصرة عبيد الله بن زياد وهو الخبير بالكوفة وشؤونها.

وبعد أن اختار الإمام الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل للذهاب إلى الكوفة، لا بد أن يكون الإمام عليه السلام قد وضع له خطة عمل ومنهج تحرك يسير عليه، فقد قال الإمام الحسين عليه السلام: «**يا بن عمِّ، قد رأيت أن تسير إلى الكوفة ننظر ما اجتمع عليه رأي أهلها، فإن كانوا على ما أتتني به كتبهم، فعجِّل عليَّ بكتابك لأسرع القدوم عليك، وإن تكن الأخرى فعجِّل الانصراف**»[1]، من هذا النص تتضح معالم المهام الموكلة إلى مسلم بن عقيل كسفيرٍ للإمام الحسين عليه السلام والتي يمكن إيجازها بما يلي:-

أولاً:- استطلاع الأوضاع السياسية والاجتماعية والنفسية للمجتمع الكوفي عن قرب، ومدى صدق الدعاوى التي سطروها في كتبهم المرسلة

(١) الأخبار الطوال: ١/ ٢٣٠.

للامام عليه السلام، وهذا ما يُستفاد من رسالة الإمام: «**فإن كتب إليَّ أنَّه قد اجتمع رأي مَلَئِكم وذوي الحجى والفضل منكم على مثل ما قدمت به رسلكم وقرأتُ في كتبكم، أقدِم إليكم وشيكاً إن شاء الله**»[1].

ثانياً:- دعوة الناس إلى طاعة الإمام والاجتماع على بيعته، وهذه المهمة الثانية تتخطى المهمة الأولى التي هي مجرد استطلاع للوضع، إذ تعني المهمة الثانية الاصطدام بالوضع السياسي القائم من خلال أخذ البيعة من الكوفيين.

ثالثاً:- مواجهة المستجدات والتطورات اللاحقة والتي سوف تترتب جزماً على قضية أخذ البيعة للإمام عليه السلام، فإنَّ الجهاز الأموي الحاكم والطبقة الموالية له سوف لا تقف مكتوفة الأيدي وتنظر إلى الناس وهم يقدِّمون الولاء والبيعة للإمام الحسين عليه السلام مما يعني تقويض الحكم في الكوفة.

هذه هي رؤوس المهام الموكلة إلى مسلم بن عقيل رضي الله عنه في الكوفة حيث نلاحظ ترتيبها الطولي، وكان على مسلم أن ينفذ هذه المهام بحسب ترتيبها من حيث استطلاع الأوضاع، ثم أخذ البيعة، ثم مواجهة التحديات وردود الأفعال من الطرف الآخر.

كذلك اشتملت وصية الإمام عليه السلام لمسلم بن عقيل على ثلاثة بنود عملية حساسة إذ أمره بتقوى الله، وكتمان أمره، واللطف، وسبب تأكيد الإمام الحسين عليه السلام على هذه الأمور الثلاثة هو لأنَّ الأخذ بالتقوى يقع في أول سلَّم

(١) بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٣٤.

الأوليات وعلى رأس الأمور في مدرسة أهل البيت عليهم السلام وهي شرط ضروري ولازم في جميع المهام وخاصة إذا تعلَّق الأمر بأموال الناس وأرواحهم وأعراضهم، وفي مهمة سياسية خطيرة كمهمة مسلم بن عقيل رضي الله عنه الذي يمثل الإمام في مهمته ويحمل راية الإصلاح والتغيير في الأمة.

أما كتمان الأمر فلم تكن مهمة مسلم مهمة سهلة كما أسلفنا وإنَّما كانت مهمة خطيرة وفي وضع أمني وسياسي شديد الحساسية والتعقيد؛ إذ لا يزال سلطان بني أمية يحكم قبضته على الوضع القائم.

وكان المعارضون للحكم الأموي متكتمين في تحركهم واجتماعاتهم، فلا بد من الكتمان وسرية التحرك حتى لا ينكشف الأمر في خطواته الأولى فيقضى عليه بسهولة، وكذلك أكَّد الإمام الحسين عليه السلام على اللطف فهو شرط لازم لمن يتصدى للأمور ويتعامل مع الرعية، وهو من لوازم الرئاسة والزعامة السياسية كما في الحديث: «**آلة الرئاسة سعة الصدر**»[1]، وخاصة في المجتمع الكوفي الذي تسلَّط عليه ولاة متجبرون من أمثال المغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه وأمثالهم.

تهيأ مسلم بن عقيل رضي الله عنه للشخوص إلى الكوفة، فودَّع الحسين عليه السلام وخرج من مكة ليلة النصف من شهر رمضان سنة ستين للهجرة وذهب إلى أهله وودَّعهم، وقدم الكوفة في اليوم الخامس من شوال، فيكون مجموع سفره عشرين يوماً، وهي أسرع مدة يقطعها المسافر من مكة إلى الكوفة، وعند

(١) ميزان الحكمة: ٤/ ٥.

وصوله إلى الكوفة عمل بوصية الإمام الحسين عليه السلام حيث أوصاه بقوله: «**فإذا دخلتها فانزل عند أوثق أهلها**»[1]، فنزل عند أوثق أهل الكوفة في الولاء لأهل البيت عليهم السلام وهو المختار بن أبي عبيدة الثقفي.

(١) كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ١/ ٣١٠.

الحلقة العاشرة

بيعة أهل الكوفة لمسلم بن عقيل رضي الله عنه

استقر مبعوث الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل في دار المختار الثقفي، وأقبلت الشيعة تختلف إليه، فلما اجتمعت إليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب الحسين عليه السلام فبايعوه على إمرة الحسين عليه السلام ونصرته بأنفسهم وأموالهم.

ولا تحدثنا النصوص التأريخية عن كلام أو خطبة لمسلم بن عقيل رضي الله عنه في هذا الاجتماع الكبير لأهل الكوفة، مع أنَّ المناسبة كانت تقتضي ذلك، ولم يقتصر الأمر على هذا الموقف فقط، فطيلة الفترة الزمنية التي قضاها مسلم بن عقيل في الكوفة والتي تجاوزت شهرين من الزمن، لم ينقل لنا المؤرخون من كلامه سوى حوار مقتضب له مع شريك بن الأعور.

كذلك نقل عنه ذلك الحوار الساخن مع عبيد الله بن زياد عندما أُلقي القبض عليه، مع أنَّنا نجد خطب وكلمات رجالات الأمويين قد دونتها أمهات المصادر التأريخية، مما أحدث فجوة كبيرة بين سلسلة الأحداث لفقدان

تسلسلها المنطقي.

إنَّ أصعب مقاطع النهضة الحسينية المباركة من ناحية التحليل التأريخي هو مقطع حركة أحداث الكوفة أيام مسلم بن عقيل رضي الله عنه، ففي هذا المقطع من كثرة الحلقات المفقودة، ومن تشابك العوامل وتداخلها وتنوّعها، ومن اضطراب النقل التأريخي لبعض مهم من وقائع هذا المقطع، ومن خفاء علل بعض مهم آخر، ما يجعل المتتبِّع والمتأمل في حركة هذه الأحداث في حيرة غامرة.

والذي يبدو من النصوص التأريخية انَّ مسلم بن عقيل رضي الله عنه قد اكتفى بقراءة كتاب الإمام الحسين عليه السلام على المجتمعين عنده من أهل الكوفة وبعض وجهائها وأشرافها، ولم يطلب منهم البيعة ابتداءً، فجاؤوا إليه يبايعونه على إمرة الحسين عليه السلام ونصرته بالنفس.

أما صيغة البيعة فإنَّها عبارة عن الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله، وجهاد الظالمين، والدفاع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين، وقسمة الفيء بين المسلمين بالسوية ورد المظالم إلى أهلها، ونصرة أهل البيت عليهم السلام على من نصب لهم العداوة والبغضاء وجهل حقهم، والمسالمة لمن سالموا، والحرب لمن حاربوا، من دون رد قولهم، ولا تخطئة لفعلهم، ولا تفنيد لرأيهم.

وقد توافدت جماهير الكوفة وبحماس متزايد، وعواطف متأججة، على مسلم بن عقيل مبايعين الإمام الحسين عليه السلام من خلاله، أو من خلال من اعتمدهم مسلم لهذا الأمر، وقد اختلفت الأقوال في عدد المبايعين، فبلغ عدد

من بايع مسلماً عليه السلام ثمانية عشر ألفاً أو خمسة وعشرين ألفاً، ولعل السبب في هذا الاختلاف يرجع إلى اطراد حركة البيعة وازديادها المستمر، مما يجعل كل رقم يعبر عن مرحلة من مراحل البيعة، والذي يبدو أنَّ هذا الاندفاع الهائل من قبل الكثير من الكوفيين نحو البيعة لم تكن سوى فورة عاطفية جياشة، ونتيجة تراكم سنوات عجاف من الظلم والحيف والإذلال، وكانت تنقصهم فهم عظم المسؤولية المترتبة على هذه البيعة، إذ كانوا يتصورون أنَّ دورهم ينتهي لمجرد تقديم البيعة وباقي الأدوار يقوم بها الإمام أو مبعوثه، ولهذا وقف صاحب البصيرة النافذة والمؤمن الفذ عابس بن أبي شبيب الشاكري رضي الله عنه ليقول كلمة، ويعرب عما في نفسه من ولاء واستعداد للتضحية من دون أن يتعهَّد لمسلم بن عقيل بأي أحد من أهل الكوفة، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أما بعد، فإنِّي لا أخبرك عن الناس، ولا أعلم ما في أنفسهم، وما أغرّك منهم، والله لأحدثنَّك عما أنا موطِّن نفسي عليه، والله لأجيبنَّكم إذا دعوتم، ولأقاتلنَّ معكم عدوَّكم، ولأضربنَّ بسيفي دونكم حتى ألقى الله، لا أريد بذلك إلا ما عند الله»[1].

هذه الكلمات على وجازتها تدل على عمق ولاء صاحبها من جهة، ونفاذ بصيرته وتشخيصه الدقيق لتلك الحشود العاطفية، فأراد أن ينتشل نفسه من بينها، وقد كشفت الحوادث المتسارعة في الكوفة وانتكاسة أهلها صدق مقولة هذا الرجل، ولهذا لم يزد على كلماته من كان حاضراً هذا المجلس من المخلصين

(١) مقتل أبي مخنف للطبري: ١/ ١٣، مقتل الحسين عليه السلام: ٥/ ٧.

الأبدال من أمثال حبيب بن مظاهر، وسعيد بن عبد الله الحنفي، حيث أجابه حبيب بن مظاهر ﷺ: «رحمك الله، قد قضيتَ ما في نفسك بواجزٍ من قولك، ثم قال: وأنا والله الذي لا إله إلا هو على مثل ما هذا عليه»[1].

كان الإمام الحسين عليه السلام في مكة، إلا أنَّه كان يتطلع شوقاً لمعرفة آخر مستجدات الأحداث في الكوفة، وكان على مبعوثه مسلم بن عقيل ﷺ أن يزوده بآخر هذه المستجدات كما أوصاه الإمام بذلك، وعندما وجد مسلم بن عقيل ﷺ ذلك الاجتماع العظيم وتلك الجموع المندفعة لبيعة الإمام الحسين عليه السلام وما أبدوه من استعداد للتضحية والفداء، كتب إلى الحسين عليه السلام رسالة مختصرة يخبره فيها عن وضع الكوفة وأهلها، ويحثه فيها على القدوم مسرعاً إليهم، ونص رسالة مسلم إلى الحسين عليه السلام حسب رواية الطبري، جاء فيها: «وقد كان مسلم بن عقيل حيث تحوَّل إلى دار هانئ بن عروة وبايعه ثمانية عشر ألفاً، قدَّم كتاباً إلى الحسين عليه السلام مع عابس بن أبي شبيب الشاكري جاء فيه: «أما بعد، فإنَّ الرائد لا يكذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً، فعجل الإقبال حتى يأتيك كتابي، فإنَّ الناس كلهم معك، ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى، والسلام»[2].

حمل كتاب مسلم بن عقيل إلى الإمام الحسين عليه السلام جماعة من أهل الكوفة وعليهم البطل عابس الشاكري، وقدم الوفد إلى مكة المكرمة، وسلَّم الرسالة

(١) مقتل أبي مخنف للطبري: ١/ ١٣، مقتل الحسين عليه السلام: ٥/ ٧.
(٢) مقتل أبي مخنف للطبري: ١/ ٣٧، مقتل الحسين عليه السلام: ٦/ ٥.

إلى الإمام عليه السلام، وقد استحثوه على القدوم إلى الكوفة وذكروا إجماع أهلها على بيعته، وما لاقاه مسلم من الحفاوة البالغة منهم، وعند ذلك تهيَّأ الإمام إلى السفر للكوفة، إلا أنَّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكتب إلى أهل الكوفة وهو في مكة، وإنَّما كتب إليهم من بعض منازل الطريق بعد خروجه من مكة ولا نعلم سر هذا التأخير، فلعله تحسُّباً لأيِّ حدثٍ طارئ قد يعيق خروجه عليه السلام من مكة، ومما جاء في رسالة الإمام عليه السلام برواية الطبري: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين سلام عليكم... فإنِّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أمّا بعد... فإنَّ كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحُسن رأيكم، واجتماع ملئكم على نصرنا، والطلب بحقِّنا، فسألت الله أن يُحسِن لنا الصنع، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمانٍ مَضَينَ من ذي الحجة يوم التَّروية، فإذا قَدِمَ عليكم رسولي فاكمشوا أمركم وجدُّوا، فإنِّي قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته**»[1].

إلّا أنَّ رسالته عليه السلام لم تصل إلى مسلم بن عقيل؛ لأنَّه استشهد في اليوم التالي لكتابتها، ولم تصل إلى أهل الكوفة؛ لأنَّ حماسهم قد انتهى، وانتكسوا على أعقابهم، وقد أُلقي القبض على حامل رسالة الحسين عليه السلام وأُلقي من أعلى القصر، ومضى إلى ربِّه شهيداً بعد أن وقف موقفاً مشرِّفاً.

(١) البداية والنهاية: ٨/ ١٦٨.

الحلقة الحادية عشرة

نصرة الحسين عليه السلام

تعد أحداث الكوفة والانتكاسة المروعة التي حصلت فيها والتي استشهد على أثرها مبعوث الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل رضي الله عنه من أهم أحداث نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وكان تولي عبيد الله بن زياد ولاية الكوفة بعد ولاية البصرة وبسط نفوذه على العراق من أهم عوامل هذه الانتكاسة والانقلاب التأريخي، فلا بُدَّ من التوقف عند مفردات هذا الحدث وملابساته، والتأمل في مجرياته من خلال التسلسل الزمني، والأشخاص الذين ساهموا في وقائعه ومجرياته، وأثناء تداعيات نهضة الإمام الحسين عليه السلام، ومراسلات أهل الكوفة، وقدوم مسلم بن عقيل رضي الله عنه إلى الكوفة، وأخذ البيعة منها للإمام الحسين عليه السلام، كان والي الكوفة آنذاك النعمان بن بشير، وكان يحب العافية، ويتحاشى الاصطدام مع أهل الكوفة، فكتب بعض حلفاء بني أمية وعيونهم في الكوفة إلى يزيد يخبرونه بقدوم مسلم بن عقيل رضي الله عنه إلى الكوفة ومبايعة الناس له ويقولون ليزيد: «فإن

كان لك بالكوفة حاجة، فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك، فإنَّ النعمان رجل ضعيف أو هو يتضعَّف»، فلما اجتمعت الكتب عند يزيد دعا سرجون مولى معاوية -وكان يستشيره- فأقرأه الكتب واستشاره فيمن يولِّيه الكوفة، وكان يزيد عاتباً على عبيد الله بن زياد، فقال له سرجون: أرأيت لو نشر معاوية كنت آخذاً برأيه؟ قال: نعم، فأخرج عهد عبيد الله على الكوفة، فقال: هذا رأي معاوية، ومات وقد أمر بهذا الكتاب، فأخذ برأيه وجمع الكوفة والبصرة لعبيد الله وكتب إليه، وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله، لقد كان الهدف من استبدال النعمان بن بشير بعبيد الله بن زياد هو السيطرة على الكوفة وذلك من خلال اتخاذ الإجراءات التالية:-

أولاً: إيقاف التيار الجماهيري المندفع إلى البيعة للإمام الحسين عليه السلام.

ثانياً: إحكام القبضة الحديدية على هذه الجماهير وضبط تحركها.

ثالثاً: تحويل ولاء هذه الجماهير إلى جبهة مناهضة ومحاربة لمن بايعه.

وهذه الأهداف الثلاثة تمثل ستراتيجية السلطة الأموية الحاكمة للوقوف أمام تحرك مسلم بن عقيل رضي الله عنه، الداعي إلى بيعة الإمام الحسين عليه السلام، والذي بدوره يريد أن يغير البنية الأساسية للنظام الأموي الحاكم، ومن هنا وقع الاختيار من قبل يزيد ومعاوية على تولي عبيد الله بن زياد لهذه المهمة الخطيرة لتحقيق الأهداف الثلاثة، فلنتساءل: ما هي المؤهّلات التي كان يحملها عبيد الله ابن زياد، والتي أهّلته لكي يُنتخَب لهذه المهمة، ويُوَلى على

ثاني الحواضر الإسلامية وهي الكوفة بعد البصرة!لقد انتخب ابن زياد لهذه المهمة وذلك لفقدانه الموازين الخلقية، والاجتماعية، والعرفية، فضلاً عن فقدانه الموازين الدينية في تعامله مع الخط الموالي لأهل البيت عليهم السلام، وكذلك استخدامه كل وسائل القوة والبطش والتنكيل والإرهاب، ومن دون الالتزام أو الرجوع إلى القيود والاعتبارات الرادعة عن ذلك، وتميزه بالطبع الغليظ الفظ الذي اكتسبه من وحشية طبع أبيه، وولوغه في الجريمة والقتل، إضافة إلى معرفته التفصيلية بالكوفة وأشرافها، وتعقيداتها السياسية والمذهبية، لقد عاش عبيد الله مع أبيه شطراً وافياً من تجربته الحافلة في الكوفة، الأمر الذي مكَّنه من متابعة أخبار الكوفة، في ضوء رصيد معرفته بها، حتى أصبح خبيراً بالتركيبة السياسية والاجتماعية، بهذه الاعتبارات وغيرها تأهَّل عبيد الله بن زياد لتولي هذه المهمة من خلال منصب الحاكمية والولاية على الكوفة، وكان لعبيد الله بن زياد دور مهم من أجل تحقيق الأهداف المرسومة له وذلك من خلال استخدام مجموعة من الأساليب نوجزها بما يلي:-

١- **استخدام أسلوب القتل والتنكيل**:- جاء في التأريخ أنَّ عبيد الله بن زياد، قام في اليوم الأول بالقبض على بعض الكوفيين وقتلهم في الساعة، وفي اليوم الثاني أمر بجمع الناس في المسجد، فخرج إليهم وخطب فيهم خطاباً عنيفاً هدد فيه وتوعد، فقال: «فإنَّه لا يصلح هذا الأمر إلا في شدة من غير عنف، ولين من غير ضعف، وأن آخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، والولي بالمولى».

٢-شراء الذمم من خلال رشوة رؤساء العشائر:- عرف ابن زياد كيف يستدرج أهل الوجاهة والمكانة الاجتماعية والسياسية والعسكرية في الكوفة، وذلك من خلال الإغراء المادي والعسكري، فبادر إلى إرشاء الوجوه والزعماء، فبذل لهم المال بسخاء فاستمال ودهم، واستخدم طبقة واسعة من هؤلاء من النفعيين والانتهازيين الذين يقوم عملهم على أساس افتراض المنفعة المادية لدى أصحاب القدرة، وهذه الطبقة ساهمت بشكل فعال مع ابن زياد في ملاحقة أنصار مسلم والإجهاز عليهم.

٣- إشاعة حالة الخوف والرُّعب بين الناس:- وقد استطاع ابن زياد وبمعونة الأشراف والوجهاء الذين اشترى ذممهم بالمال والمناصب زرع حالة من الخوف والرعب في التيار الجماهيري الذي أحدثه مسلم بن عقيل داخل الكوفة، وسلب بذلك الإرادة والحركة من تلك الجماهير.

٤- نشر الجواسيس والمخبرين:- استخدم ابن زياد أسلوب نشر العيون والجواسيس، كوسيلة وأسلوب من الأساليب للوصول إلى أهدافه، وتنفيذ مهمته التي أُوكلت إليه وهي القبض على مسلم بن عقيل، والإجهاز على حركته الثورية من خلال معرفة العناصر الفاعلة في نهضته، ومواطن القوة والضعف فيها.

٥- إجراء مسح جغرافي لحدود الكوفة وإغلاق المنافذ المؤدّية إليها:- وذلك ضمن إجراء أمني شامل لترتيب الأوضاع الأمنية والعسكرية، قام ابن

زياد بإجراء مسح جغرافي لحدود الكوفة والمداخل الرئيسية للمدينة، ومدينة الكوفة في ذلك الوقت كانت حديثة الإنشاء جديدة البناء الاجتماعي، استوطنتها طوائف متعددة، ووجِدَ فيها تباين مذهبي واسع وتفاوت طبقي كبير، بالإضافة إلى تنوعها القبلي حيث سكنتها قبائل متباينة الميول والاتجاهات، وعلى ضوء التركيب المعقد للمجتمع الكوفي، وفي ظل الواقع السياسي والإجراءات التي اتَّخذها ابن زياد للسيطرة على الكوفة، تظهر لدينا جملة من المعطيات تسلط الأضواء على أسباب انتكاسة الكوفة، ومن هذه المعطيات:-

أولاً: من خلال الواقع الاجتماعي للمجتمع الكوفي آنذاك والذي استعرضنا بعض معالمه يتبين لنا أنَّه مجتمع غير متجانس، ويتكون من خليط غير متماسك، وتركيبة اجتماعية شديدة التعقيد، فليس من السهولة في هكذا مجتمع مفكك أن تتوحد الجهود والاتجاهات، إذ يبقى الانقسام وتعدد المواقف والاتجاهات والآراء هي السمات البارزة والملازمة لهكذا مجتمعات.

ثانياً: مهما كانت الأرقام التي يذكرها المؤرخون حول من بايع مسلم بن عقيل ﷺ، إلا أنَّها لا تشكِّل في الواقع إلا جزءاً يسيراً من سكان الكوفة آنذاك، وإنَّ الذين بايعوا -مهما كان عددهم- لم يكونوا جميعاً في نفس المستوى الإيماني والثوري، ولم يمتلك جميعهم نفس الدرجة من الوعي والبصيرة، وإنَّما كانوا على درجات متفاوتة من حيث الإيمان بالقضية التي بايعوا من أجلها، ومن حيث درجة حماسهم وثورتهم ومن حيث وعيهم وبصيرتهم وثباتهم، كل هذه الأمور وغيرها كان لها الدور الكبير في الانتكاسة التي حصلت لأهل الكوفة.

الحلقة الثانية عشرة

تلقّي الإمام الحسين عليه السلام

خبر استشهاد مسلم؟

كان آخر ما تلقَّاه الإمام الحسين عليه السلام عن أوضاع الكوفة رسالة مسلم بن عقيل التي بعثها مع قيس بن مسهر الصيداوي وعابس بن أبي شبيب الشاكري، والتي على أثرها خرج الإمام عليه السلام من مكة قاصداً العراق، وكانت هذه الرسالة قد تغيَّرت بشكلٍ جذري، وحصل ذلك الانقلاب العجيب في المجتمع الكوفي والذي بيَّنا ملابساته ووقائعه سابقاً.

إنَّ أخبار الكوفة بعد تلك الرسالة الأخيرة قد انقطعت عن الإمام الحسين عليه السلام مما دعاه إلى أن يكتب رسالة، وذلك عندما بلغ الحاجز من بطن الرّمة ويبعثها إلى أهل الكوفة مع قيس بن مسهر الصيداوي، فأقبل إلى الكوفة حتى انتهى إلى القادسية أخذه الحصين بن نمير فبعث به إلى عبيد الله بن زياد، فقال له عبيد الله: من أنتَ؟

فقال: أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وابنه.

فقال له ابن زياد: فلماذا خرقت الكتاب؟

فأجابه بن مسهر: لئلا تعلم ما فيه.

فقال له ابن زياد: وممن الكتاب وإلى من؟

فأجابه: من الحسين عليه السلام إلى جماعة من أهل الكوفة لا أعرف أسماءهم.

فغضب ابن زياد «عليه اللعنة» وقال: «لا والله لا تفارقني حتى تخبرني بأسماء هؤلاء القوم أو تصعد المنبر فتلعن الحسين بن علي وأباه وأخاه وإلا قطَّعتك إرباً إرباً».

فقال قيس بن مسهر: «أما القوم فلا أخبرك بأسمائِهم، وأما لعن الحسين وأبيه وأخيه فأفعل»، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وأكثرَ من الترحم على علي والحسن والحسين عليهم السلام ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه ولعن عتاة بني أمية عن آخرهم ثم قال:

«أيُّها الناس أنا رسول الحسين عليه السلام إليكم وقد خلفته بموضع كذا فأجيبوه»[1].

فأخبر ابن زياد بذلك فأمر بإلقائه من أعالي القصر، فأُلقي من هناك فتقطَّع ومات رحمه الله، وكان رجلاً شريفاً شجاعاً راسخاً في محبة أهل البيت عليهم السلام، ولما

(١) بحار الأنوار: ٤٤/ ٣٧٠.